البناء الأخلاقی فی القرآن الکریم/ (القسم الثانی)

نویسنده: معرفت،محمد هادی
فلسفه و کلام :: رسالة الثقلین :: بهمن 1384 - شماره 50
از 184 تا 203
آدرس ثابت : http://www.noormags.com/view/fa/articlepage/209919

دانلود شده توسط : آهو خرس
تاریخ دانلود : 1393/06/01 19:40:25

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.com

البناء الأخلاقي في القرآن الكريم

القسم الثاني

الشيخ محمد هادي معرفة [1]

أسس الإيمان الخلاق

قلنا سابقاً: إنّ الإيمان هو نقطة الانطلاقة باتجاه الكمال والحياة الخالدة، شريطة أن يكون مبنياً على أساس اليقين الراسخ والرؤية التي لا تخالطها المادّة، هذا بالإضافة إلى ضميمة العمل الصالح طبعاً.

وهنالك أسس وعوامل مساعدة تؤدي إلى تحقيق الإيمان الصحيح منها:

١ ـ المنطلق الثابت:

الإيمان الذي يؤخذ من المحيط الاجتماعي أو من النظم والتقاليد الاجتماعية والعائلية، يحمل في مظهره صفة المفروضية التي لا تؤثر كثيراً في حركة الإنسان باتجاه الكمال.

نعم، فإذا كان منشأ الإيمان هو الرؤية، فسوف يكون مؤثراً، ويغدو عملاً اختيارياً ومادة للحركة المطلوبة، فالإيمان يكون كذلك حينما يصدر عن تحقيق وعلم لا عن تقليد واتباع، لهذا منح القرآن العلم والعلماء قيمةً راقية، واعتبرهما منشأ للإيمان الصحيح.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ سبأ: ٦.

---

(١) عالم معروف متخصّص في العلوم القرآنية.

www.noormags.com

أي أن الذين يتعاطون العلم والحكمة يدركون جيداً أن رسالتك حق وصادقة: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾ آل عمران: ١٨، أي أنهم يشهدون بوحدانية الله تعالى وعدله، وفي هذه الآية العلماء موضوعون في مصاف الملائكة والله عزّ وجلّ، لأن العلم والحكمة والإيمان أوصلتهم إلى الدرجة التي يتلمسون فيها الحقائق بوضوح.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت: ٤٩، ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة: ١١.

نعم، من لم يؤمن يحرم من عطاءات العلم والتفكير: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يونس: ٣٩.

٢ ـ الإيمان بالغيب:

في المنظور القرآني، الإيمان له قيمة ودور في إيصال الإنسان إلى الكمال، حيث يستوجب النظر إلى الخالق عزّ وجل بما هو حاضر وناظر إلى أعمال الإنسان، وأنّ هنالك يوماً يُجزى فيه كلٌّ عن عمله ويحصد نتيجة أعماله وتصرفاته آنذاك، ويجرّ وراءه عقابيل سلوكه.

إيمان من هذا النوع يؤدي بالإنسان إلى مراقبة أعماله وسلوكه فيجعلها مستقيمة وثابتة، ولينتخب المناهج الصحيحة التي تفضي إلى الخلق الكريم. مسألة الإيمان بالغيب التي تطرح في القرآن هي إحدى المسائل الأساسية البنائية التي تؤثر في صنع الإنسان وبنائه أخلاقياً.

الإنسان الذي يرى الحياة بمجرد النظرة المادية ولا يؤمن بما وراءها، لايستطيع التفكير بشيء غير المنافع المادية العاجلة (متاع الدنيا)، فلا الأخلاق ولا القيم الإنسانية الراقية لهما شيء من اهتمامه ونظره، إنه يعتبر الحياة عبارة عن هذه الأيام الدنيوية القليلة بحيث عليه أن يتمتع بها بشكل كامل، والإيثار والتسامح ورعاية حقوق الآخرين لا مفهوم لها عنده: ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ الأنعام: ٢٩، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا

www.noormags.com

الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ الجاثية: ٢٤.

إنه يعتبر أنّ الوجود إنما هو في هذه الحياة، ولا حياة أخرى، والحياة عبارة عن هذا الوجود المادي، البعض يموت والبعض الآخر يولد، وهذا ما تقتضيه طبيعة الوجود الإنساني ـ كما في الموجودات الأخرى من الحيوانات والنباتات ـ ، ويعتقدون هكذا ـ طبعاً ـ لأنهم لا يمتلكون الرؤية والاطلاع والمعرفة.

ولكن الله تعالى يقول عن المتقين: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ٢ ـ ٥.

فأولى صفات المتقين الإيمان بالغيب، وهو الإيمان بوجود أوسع وخالد لما بعد عالم المادّة، فهم يرون الله تعالى في كل ذرات العالم، فيتقرّبون إليه في كل شيء، ولا يدّخرون بذلاً أو مالاً في سبيله، ويؤمنون بجميع الشرائع الإلهية، ويوقنون بأن هنالك عالماً آخر، وهؤلاء هم السالكون في طريق الفلاح والفوز والنجاة.

٣ ـ الحياة الخالدة:

الشواهد العقلية والنقلية تدلّ على أن الإنسان لم يخلق لهذه الأيام المعدودة، وليس كالنبات الذي يذبل وتتيبس مفاصله وينتهي، وليس كالحيوان الذي يغدو ويروح، بل الإنسان موجود خالد: «ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء»[١].

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فيها اختبرتم ولغيرها خلقتم»[٢].

(١) بحار الأنوار ٦: ٢٤٩، و ٣٧: ١٤٦، و٦٨: ٢٦٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٣.

www.noormags.com

ويقول عليه السلام أيضاً: «عباد الله، الله الله في أعزّ الأنفس عليكم وأحبها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه، فشقوة لازمة أو سعادة دائمة، فتزوّدوا في أيام الفناء لأيام البقاء»(١).

يقول الله عزّ وجل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ غافر: ٣٩، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت: ٦٤.

٤ ـ العمل الصالح

الإيمان الراسخ هو الذي تترشح آثاره على سلوك الإنسان وعمله بحيث يجعله سلوكاً وعملاً أنموذجياً، وإلاّ فهو إيمان أجوف ولا أساس له ولا تأثير، لذا جُعل العمل الصالح في القرآن مقروناً بالإيمان ليكون دليلاً وأثراً عليه: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ الرعد: ٢٩، ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الطلاق: ١١، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل: ٩٧، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ طه: ٧٥، ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ القصص: ٦٧.

ومن هنا لم يقبل إدعاء الأعراب بأنهم آمنوا، في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات: ١٤، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات: ١٥.

٥ ـ النية الصادقة

أحد أهمّ العوامل الأساسية المؤثرة في ارتقاء القيم الأخلاقية هي النية والدافع للعمل. ويمكن القول: إن هذه هي إحدى خصوصيات ومميزات النظام الأخلاقي في الإسلام، حيث تُبرز النية على أنها أساس القيمة

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٧.

www.noormags.com

الأخلاقية ومنشأ الخير والشر، فيما لا تولي المذاهب الأخلاقية الأخرى أو معظمها النية هذه الأهمية والدور المؤثر في إنتاج العمل المشرق الخلاّق.

من هنا، يكون كل فعل أخلاقي اختيارياً، يتم وفق إرادة الفاعل، ولا يمكن أن يكون خالياً عن النية والدافع الخاص، ومن الطبيعي أن يكون لكل فعل اختياري دافع خاص يتمّ به الفعل، وهو قائم في نفس الفاعل، يدعو صاحبه لعدم الترك أو عدم الاستبدال بفعل آخر.

إذن، لا يوجد فعل اختياري يتم دون حضور الدافع والنية لدى الفاعل، لهذا يطرح السؤال التالي: هل إن الفعل الأخلاقي الذي هو عمل صالح في نفسه ولائق ومتوفر على الحُسن الفعلي، ينبغي أن يكون متوفراً على حُسنٍ فاعلي أيضاً؟

يعني: هل إن جهة الحسن والقيمة الأخلاقية الموجودة في الفعل ينبغي أن تكون موجودة في الفاعل؟

مثلاً، إن كان العمل الأخلاقي المطلوب هو خدمة الناس، وقيمته تتأتى من إيصال العون للمحتاجين، فهل يجب أن يكون دافع الفاعل هو ذلك، أي نفس الرغبة في إيصال العون وخدمة الناس، ليكون الفاعل حسناً، أم أن محبوبية وحسن هذا العمل في ذاته يكفي؟

في نظر الإسلام، نفس حسن العمل في ذاته لا يكفي، والحسن الفعلي لابدّ أن يكون مقترناً بحسن فاعلي، حتى وإن كان دافع الفاعل هو استغلال الفعل من أجل الشهرة وحبّ الظهور، وكان الفاعل يخفي وجهاً ومنظراً كريهاً وقبيحاً وراء عمله الجميل هذا. المهم أنه لابدّ من نيّة سواءً كانت صالحة أم سيئة حتى يقال: إن هذا عمل أخلاقي، وإلاّ فنفس صلوح العمل وحسنه لا يكفي في أخلاقيته حسب الرؤية القرآنية...

وعلى هذا الأساس، يكون أثر العمل الأخلاقي كاملاً في التكامل وسمو الروح الإنسانية، ويترتب على الحسن الفاعلي والنية الخالصة

www.noormags.com

والإخلاص في العمل. وهذه النية هي التي تمنح الفعل شكله وتوصل الفاعل لسعادته أو شقائه.

في القرآن الكريم توجد إشارات لذلك، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ الإسراء: ٨٤.

وهذا يعني أنّ كل شخص يعمل وفقاً لمصنعه الداخلي، والله تعالى يعلم من هو الذي اصاب في فعله الأخلاقي حقاً وأوصل نفسه لسبيل الهداية.

وأيضاً آية: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ البقرة: ٢٢٥.

أي أن القسم الذي لا تقصدونه حقاً والذي يأتي عن طريق اللغو، لا يسألكم عنه الله، ولكنه يسألكم ويحاسبكم عمّا تكنّه دواخلكم.

وآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٨٤.

وآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ البقرة: ٢٦٤.

أيضاً، ورد ذلك في كثير من الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام: «لا عمل إلاّ بنية» أو «إنما الأعمال بالنيّات»(١).

يعني كل الأعمال مهما كان نوعها ـ صالحة أم سيّئة ـ نيّة الفاعل ودافعه هما اللذان يمنحانها شكلها الخاص.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «النية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل». ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾، قال: «على نيّته»(٢)، وعن النبي ﷺ أنه قال: «وكل عامل يعمل على نيته»(٣).

وروى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) وسائل الشيعة ١: ٤٦ ـ ٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥١، ح٥.

(٣) المصدر نفسه: ٥٠، ح٣.

www.noormags.com

«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امريء ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عزّ وجلّ، ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلاّ ما نوى»(١).

وروى أمير المؤمنين علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا قول إلاّ بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا عمل ولا نية إلاّ بإصابة السُنّة»(٢).

يعني أن العمل هو الذي يشخّص القول، والنية هي التي تشخّص القول والعمل، وإن اتباع الشرع هو الذي يمنح القول والعمل والنية القيمة الحقيقية.

هذا الحديث الشريف يقرن معيار قيمة العمل الأخلاقي بالشرع، لأن العمل الأخلاقي لابدّ أن يكون صالحاً ولائقاً، وهذا الصلوح وهذه اللياقة لابدّ أن يتوافق عليهما العقل والشرع.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «وكل عمل تعمله لله فليكن نقياً من الدنس»(٣) وقال عليه السلام أيضاً: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص، الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلاّ الله عزّ وجلّ»(٤).

وأرقى جواهر الكلام بهذا الصدد قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وبالإخلاص يكون الخلاص»(٥).

يعني أن الجد في إخلاص العمل هو الذي ينجي من شوكة عفريت النفس!

٦ ـ رضا الله تعالى

في القرآن الكريم يعتبر رضا الله معيارَ القيم الأخلاقية، فالعمل يصير

---

(١) المصدر نفسه: ٤٩، ح١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧، ح٢.

(٣) المصدر نفسه: ٦١، ح١٠.

(٤) المصدر نفسه: ٦٠، ح٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٩، ح٢.

www.noormags.com

صالحاً حينما يجمع بين النية الصالحة ورضا الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٢، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ الرعد: ٢٢، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إلا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ الليل: ١٧ ـ ٢١، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة: ٢٦٥، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ الروم: ٣٩.

وهنالك آيات كثيرة بهذا الصدد، تنصّ على أن النية الخالصة للعمل هي القيام به بدافع رضا الله تعالى، وهذا هو الذي يمنح العمل قيمته، لأن الإنسان الذي يسير بهذا الاتجاه إنما يسير في طريق الحق والحقيقة وعلى ضوء الفطرة والكرامة الإنسانية، وهذا هو «الصراط المستقيم» و «سبيل الله»...

هكذا يتّجه الإنسان في الحقيقة نحو الكمال والخلاص من قيود وظلمات المادة والجسمانية: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة: ٢٥٧.

وقد جاءت الشريعة لهذا القصد، لتنقذ الإنسان من جميع الظلمات وتدفع إلى باحة النور والخلود: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة: ١٥.

٧ ـ آفة الرياء

الريء والسمعة من أخطر آفات العمل الصالح، فإذا عرف الرياء طريقه للأعمال الأخلاقية التي تنطوي على جنبة الإحسان والإنسانية، فقدت قيمتها. وفي هذه الحالة يكون العمل الذي يتم بدافع الأنانية أو حبّ الظهور عاجزاً عن إبراز خلق صاحبه، بل إن الإنانية وحبّ الظهور في ذاته يعدّان عملاً قبيحاً، خصوصاً إذا كان العمل المنجز من الأعمال القُربيّة، أي من الأعمال التي يتقرّب بها إلى الله عزّ وجلّ، فبتلوّثها بالرياء تنقلب وتكون ضدّ القيم

www.noormags.com

الأخلاقية، وتدمّر كل ما تمّ فعله وإنجازه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٦٤، ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم: ١٨.

وفي «أصول الكافي» وردت روايات كثيرة تصف الرياء بأنه محبط ومدمّر للأعمال، نذكر بعضاً منها:

عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ١١٠، يقول عليه السلام: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، بل يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه...» ثم قال عليه السلام: «ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يُسِرُّ شرّاً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شرّاً»[1].

في هذا الحديث الشريف، توسّع في معنى الشرك في العبادة، ليشمل كل من عمل عملاً لغير وجه الله تعالى. لهذا فالإمام عليه السلام يقول: إن كل من عمل ثواباً، أي عمل عملاً جعله الله تعالى في تشريعه مورداً لرضاه، ولم يلحظ هذه الجنبة، أي رضا الله تعالى، بل ليمدحه الناس ويصفونه باللياقة والطهارة، بحيث يكون قصده سماع ذلك منهم، فقد أشرك بعبادة ربه.

وعن محمد بن عرفة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: «ويحك يا ابن عرفة، اعملوا لغير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكّله الله إلى ما عمل، ويحك، ما عمل أحد عملاً إلاّ ردّاه الله، إن خيراً

(١) الكليني، أصول الكافي ٢: ٢٩٣، ح٤.

www.noormags.com

فخير، وإن شرّاً فشر»[١].

وفي صحيحة عمر بن يزيد ورد: كنّا نتعشّى مع الإمام الصادق عليه السلام، فتلا قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة: ١٤ ـ ١٥، فقال عليه السلام: «لم يفعل الناس أعمال القربة،للتقرّب من الله تعالى في الظاهر، ويضمرون خلافه في قلوبهم.. والله مطّلع عليهم... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسرّ سريرةً ردّاه الله رداءها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «من أظهر للناس ما يحب الله وبارز الله بما كرهه لقى الله وهو ماقتٌ له»[٣].

تساؤلان

فيما يرتبط بالرياء وحب الذات، هنالك سؤالان يطرحان:

الأول: في القرآن الكريم والروايات، إبراز بعض الأعمال الصالحة جائز، بل مرغوب فيه أحياناً، مثل الصدقات. فهل هذا الأمر يتنافى مع ضرورة تجنّب حب الظهور والرياء والتظاهر؟

الثاني: بعض الأفراد يعملون الخير لمجرد الخير، ودافعهم العطف والرحمة والإنسانية أو من باب حب العلم والبحث، يعملون الأعمال التي تنفع المجتمع البشري، ليسير في ركب التطور، مع أنهم ليس لديهم اعتقاد ديني أو قُربة إلهية، فهل مثل هذه الأعمال قادرة على إبراز الحسن الفاعلي أو أنها تقع مورد القبول الإلهي ويستحقّ أصحابها الثواب عليها؟

في جواب السؤال الأول ينبغي التنبيه على أن هنالك فرقاً بين الإظهار والتظاهر، فالإظهار بالنسبة للعمل الصالح يستدعي تشجيع الآخرين، وحسن الفعل مع حسنه الفاعلي يتظافران لاستجلاب نوايا الآخرين، ودوافعهم،

---

(١) المصدر نفسه: ٢٩٤، ح٥.

(٢) أصول الكافي، مصدر سابق، ح٢.

(٣) المصدر نفسه: ح٦.

www.noormags.com

ويؤدي إلى توسعة عمل الخير وإشاعة المعروف، في هذه الصورة يكون نفس الإظهار نوعاً من التبليغ والدعوة لعمل الخير، فيكون عملاً صالحاً.

لذا، فدافع هذا الشخص ليس في نفس العمل فحسب، بل في إظهاره أيضاً، ينبغي أن يكون هو رضا الله تعالى والدعوة إليه.

لكن التظاهر مجرد حب الذات والظهور، والشخص المتظاهر ليس له دافع سوى الشهرة والترويج لشخصه، نقرأ في الآية الشريفة: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة: ٢٧١.

طبعاً، الإخفاء أفضل لئلا ينفتح بذلك طريق للشيطان.

وفي صحيحة زرارة عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير، فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ فقال عليه السلام: «لا بأس، ما من أحد إلاّ وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»(١).

ولهذا مدح إعلان الصدقة وإخفاءها معاً: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٧٤.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في «الكافي»: «إن صدقة الليل تطفيء غضب الرب وتمحو الذنب العظيم وتهوّن الحساب، وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر»(٢).

وروي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ وقد سأله أحدهم: أعمل العمل ولا أحبّ أن يطّلع عليه أحد، لكن يطّلع عليه بعضهم فأسرُّ ـ قال صلى الله عليه وآله: «لك أجران:

(١) أصول الكافي ٢: ٢٩٧، ح١٨.

(٢) الكافي ٤: ٩، ح٣.

www.noormags.com

أجر السرّ وأجر العلانية»[١].

وفي «تفسير الصافي» أورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ قال عليه السلام: «هي سوى الزكاة، إنّ الزكاة علانية غير سرّ».

وقال عليه السلام: «كل ما فرض الله عليك فإعلانه أفضل من إسراره، وما كان تطوّعاً فإسراره أفضل من إعلانه، ولو أنّ رجلاً حمل زكاة ماله على عاتقه فقسّمها علانية كان ذلك حسناً جميلاً».

وعن الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجل: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾، قال عليه السلام: «يعني الزكاة المفروضة»، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾، قال عليه السلام: «يعني النافلة، إنهم كانوا يستحبون إظهار الفرائض وكتمان النوافل»[٢].

وجاء في «تفسير القمي»: «الزكاة المفروضة تخرج علانية وتدفع علانية، وبعد ذلك غير الزكاة إن دفعته سرّاً فهو أفضل»[٣].

ويقول المحقق الأردبيلي أنّ المشهور بين الفقهاء أن الإظهار في الفرائض أولى، خصوصاً بالنسبة لأولئك المتّهمين بترك الواجبات؛ لأن دفع التهمة عن النفس شيء مرغوب فيه، بالإضافة إلى أن هذا العمل يوجب اتّباع الآخرين له. نعم في غير الفرائض الإخفاءُ أفضل؛ لصون العمل من تلويثات الرياء بكل أنواعها[٤].

ويكتب العلامة المجلسي أيضاً في «بحار الأنوار» أن إخفاء عمل الخير أفضل من إعلانه، ولكلّ من الإخفاء والإعلان وجه مرغوب فيه؛ ففائدة الإعلان ترغيب وتشويق الآخرين لإنجاز أعمال الخير، وفائدة الإخفاء الهروب

---

(١) المجلسي، مرآة العقول ١٠: ٩٦.

(٢) الكاشاني، تفسير الصافي ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) تفسير القمي ١: ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) الأردبيلي، زبدة البيان: ١٩٢.

www.noormags.com

من الرياء، والله تعالى مدح كلا الأمرين مع أنه اعتبر أن الإخفاء أفضل[١].

وفي جواب السؤال الثاني ينبغي القول: بأن مورد التحذير هو التظاهر وحبّ النفس، والتي تقلل من قيمة العمل الأخلاقي. أما دواعي العمل الأخلاقي ومناشئة كحب الخير والإنسانية أو طلب إدراك الحقائق وحب العلم والبحث، فهو في الواقع دواعي نابعة من الفطرة الإنسانية الأصيلة والأفكار الخيّرة التي أودعها الله تعالى في أصل الخلقة الإنسانية.

وعليه، فدوافع ورغبات من هذا النوع، ناشئة من الفطرة ومتماشية مع «الصراط المستقيم» الذي وضعه الله للإنسان، فالله تعالى خلق الإنسان ليهديه إلى مثل هذه الأعمال، إذاً، فالإرادة هنا هي إرادة، والحركة فيها تسير في السبيل القويم الذي اختطّه الله تعالى لبني البشر.

في الحقيقة، هؤلاء الناس، يلبّون نداء الفطرة ويحققون إرادة الله تعالى. من هنا فهذه الأعمال متوفرة على الحسن الفاعلي بالإضافة إلى حسن الفعل، ويستبعد أن يكون فاعلوها منقطعي الصلة بالله عزّ وجل، فالإنسان الذي يبدع هذه الأفكار الخيرة والراقية ينبعث من باطن نظيف، وهذا الباطن هو الذي يتعامل مع الله، ولا يصدّق أن باطناً من هذا النوع لا إيمان له بالله تعالى.

بالإضافة إلى أن طهارة الباطن تجعل الإنسان مستقيماً ومتعهداً، ليكون مشمولاً بآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧، وبعيد بالنظر إلى اللطف والعناية الإلهية أن يترك هؤلاء وإبداعاتهم بدون أجر ومقابل.

إطلاق الآيات القرآنية وبعض الروايات يشير إلى هؤلاء المحسنين وأعمالهم الخيّرة:

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف: ٥٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ الكهف: ٣٠.

---

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٢٨٣.

www.noormags.com

مع أن صدر الآية يرتبط بالمؤمنين، لكن ذيل الآية يطرح قضية كبرى كليّة توسّع من مورد الآية ليشمل كل من أحسن عملاً.

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف: ٩٠.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هود: ١١٥.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الأعراف: ١٧٠، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ آل عمران: ١٩٥.

كل هذه الآيات نزلت في موارد خاصة، ولكن العبارة التي تؤدي أنه سوف لن نضيع أجر من يحسن (العمل) تحمل طابع العمومية، وتشكل كبرى الاستدلال.

بالإضافة إلى أن الآيات التي تحمل طابع العموم والتي تؤدي إلى (أنه من يعمل الخير فهو له ومن يعمل السوء فعليه) ناظرة إلى العدل والحكمة الإلهية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة: ٧ ـ ٨، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصّلت: ٤٦، ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ النحل: ١١١.

هذا النوع من الآيات كثير في القرآن، تتحدث عن العدل الإلهي، وتعدّ الذين يعملون الصالحات أخياراً، فيما تعدّ ما يقابل ذلك أشراراً. إذاً، كل عمل صالح يحكي عن نيّة صالحة، يعامل على أساس ذلك في قانون العدل الإلهي: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

نعم، أولئك الذين لا نصيب لهم من الله تعالى، هم سيئون أشرار. والشاهد على هذا المدعى رواية الصدوق ﷺ في «الخصال»: «للجنّة ثمانية أبواب: الأول للأنبياء والصديقين، والثاني للشهداء والصالحين، وخمسة أبواب للمؤمنين الصادقين، والثامن للذين لا يناصبون العداء للحق والحقيقة»[1].

(١) تلخيص الحديث، مفصّل في الخصال ٢: ٤٠٧ ـ ٤٠٨، باب الثمانية، ح١٦؛ وفي البحار ٨: ٣٩، ح١٩.

www.noormags.com

ويمكن أن يقال: في بعض الآيات اشتُرط الإيمان، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ الأنبياء: ٩٤، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ طه: ١١٢، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء: ١٢٤، ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ * يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥.

هذا معناه أن قبول الأعمال يتم حينما تنشأ عن التقوى، وهنالك آيات كثيرة بهذا الصدد.

وفي تفسير وتوجيه هذه الآيات بحيث لا تتعارض مع الآيات الأولى المطلقة ينبغي أن يقال: إن هذه الآيات تحتوي على جنبة نفي (قيد)، يعني أن جنبة عدم الإيمان تنفي الخصوصيات الأخرى الموجودة في أعمال المحسنين في الآيات المتقدمة.

والنتيجة هي أن الأعمال في الطائفة الأولى (المطلقة) يكون لها جزاء وأجر ومقابل إن لم يصاحبها انتفاء الإيمان والعداء للحق ممن لا نصيب لهم من الله تعالى، وهذا الشرط تضعه الطائفة الأخرى من الروايات التي تشترط الإيمان، فعدم الإيمان وانتفاؤه عن العمل ينسف كل عمل، والعمل المقبول هو إما المنبعث عن الإيمان وإما المنبعث عن الفطرة الإنسانية.

والإنسان الذي أخذ بنظر الاعتبار في هذه الآيات الأخيرة هو الإنسان الذي انطفأ في داخله نداء الفطرة، وعمي لديه نظر العقل، ولا نظر لديه إلى مسألة الإنسانية أو الشرف أو الكرامة. وعدم الإيمان هذا كاشف عن فقدان كل شيء لديه: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٥٨ ـ ٥٩، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىَ قُلُوبِ

www.noormags.com

الْكَافِرِينَ﴾ غافر: ٣٥.

المجتمع الفاقد للإيمان في نظر القرآن، هو مجتمع أعمى القلب، والمجتمع الذي يسود فيه النظر والفكر، يستقبل الإيمان بالله تعالى من خلال القلب والروح: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٧، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق: ٣٣، ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الصافات: ٨٣ ـ ٨٤.

من هنا، تكون سلامة القلب حاكيةً عن صحوة الفطرة ورؤية العقل، وجاذبة للإنسان باتجاه الحق تعالى. وبالإضافة إلى أن الإسلام اعتبر العلم والفكر مادة الرؤية الفطرية للإنسان، أيقظ لديه حسّ اتباع الحقّ، والعلماء هم الذين يصلون إلى الحقيقة ويتقربون إلى الله بها، وهذه الحركة باتجاه الحقّ تعالى هي التي تفضي إلى الشرف والكرامة الإنسانية وجميع الخصال الراقية: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾ آل عمران: ١٨، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ سبأ: ٦، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٩، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ فاطر: ٢٨.

وآيات أخرى كثيرة تجعل العلماء في الصف الأول من المتدينين.

والنتيجة أن الإنسان الحرّ الذي لا ينغمس بالهوى والهوس يتحرى في سلوكه هذا الشرف والكرامة الإنسانية لذاته، من خلال فطرة يقظة ورؤية راسخة، خصوصاً العلماء، وهؤلاء هم الذين يصلون إلى حقيقة الإيمان، ويضعون الإعتقاد في أول صفحات الحياة الإنسانية، وفي هذا يتكامل لديهم المشهد الأخلاقي الإنساني، فتكون أعمالهم الصالحة مقبولةً من قبل الحق تبارك وتعالى.

٨ ـ موافقة السنة

أهمّ شرط لقبول العمل الصالح موافقة العمل للسنّة الإلهية، وأن يأتي

www.noormags.com

العمل مثل ما يريده الله تعالى، وأن يطهّر من البدع والملوثات، مثل حب النفس والعجب واحتقار الآخرين، وأخطر آفة في هذا المجال هي الابتداع والتصرف على خلاف السنّة الإلهية الجارية في الكون، وهذا ما يتحرك بعكس اتجاه الفطرة والتفكير العقلاني.

مثلاً عدم الإحسان إلى الآخرين وإعانة المعوزين، هو خلاف السنّة الإلهية، والعقل والفطرة يحثان عليها، لهذا ورد التأكيد على ملاحظة إرشادات العقل والفطرة والسنّة الإلهية في تقويم وإنجاز الأعمال الصالحة.

روى ثقة الإسلام الكليني في أواخر كتاب «فضل العلم» عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا قول إلاّ بعمل، ولا قول ولا عمل إلاّ بنيّة، ولا قول ولا عمل ولا نية إلاّ بإصابة السنّة»(١).

أورد الشيخ المفيد هذه الرواية في باب الصوم من كتاب «المقنعة»(٢)، ورواها أيضاً الشيخ الطوسي في «التهذيب» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «لا قول إلاّ بعمل، ولا عمل إلاّ بنية، ولا نية إلاّ بإصابة السنّة». وكذا في كتاب «الأمالي» عن الإمام الرضا عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله(٣).

ورواها أيضاً أبو جعفر البرقي في كتابه «المحاسن» طبقاً لرواية «الكافي»، وروى أيضاً عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: «إن أفضل الأعمال ما عمل بالسنّة وإن قلّ»(٤).

٩ ـ آفة البدعة

تدخل البدعة في حقيقتها السنّةَ الإلهية، على شكل تصحيح أو

---

(١) أصول الكافي ١: ٧٠، ح٩؛ ووسائل الشيعة ١: ٤٧، ح٢.

(٢) المقنعة: ٣٠١.

(٣) تهذيب الأحكام ٤: ١٨٦؛ والأمالي ١: ٣٤٦، ٣٩٦.

(٤) المحاسن ٢: ٣٤٨، ح٧٣١.

www.noormags.com

اعتراض على الشارع المقدّس، وهذا ناشيء إما عن قصور النظرة أو استبطان الغرض، في البدء تنشأ من الضعف أو الانصياع للوساوس الشيطانية، ثم تكون عبارة عن وقوع في شرك الشيطان: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ المجادلة: ١٩.

لهذا السبب يكون الابتداع وقوفاً في صفّ حزب الشيطان ضد حزب الحق، ومن هنا يقول تبارك وتعالى في ذيل الآية المتقدمة: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وعليه، فالحركة المنسابة مع البدعة هي انحراف عن السنّة الإلهية والصراط المستقيم، فالشريعة الإلهية متكاملة ولا ثغرة فيها، وكل نوع من أنواع التصحيح والتنظير أو الاعتراض هو فضول وخروج عن باحة العبودية، وفي الواقع هو اتباع لهوى النفس وتمرد على قوانين الشرع الحنيف.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾ القصص: ٥٠، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الروم: ٢٩، ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ص: ٢٦، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ من كِتَابٍ﴾ الشورى: ١٥، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن به اللهُ﴾ الشورى: ٢١، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ الجاثية: ١٨ ـ ١٩، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾ محمد: ١٤، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ النجم: ٢٣.

تعريف البدعة

البدعة نوعان: البدعة في الخلقة، والبدعة في الشرع.

النوع الأول: البدعة في الخلقة وهي أن يتحرك الإنسان على خلاف اتجاه الفطرة والتفكير الصحيح والعقل، وغضّ النظر عما هو معروف بين العقلاء.

www.noormags.com

وهكذا إنسان لا يتعامل مع الطبيعة بشكل سليم، بل يعمل وفق رغبته المخالفة للمتعارف ولمقتضى الطبع الإنساني.

وهذا نوع من الشذوذ النفسي يوجد لدى بعض الأفراد مع ميل ورغبة لبعض السلوكيات والتصرفات المخالفة للمتعارف، حتى في نوعية اللبس وطريقة الحياة، من هنا تكون الأعمال القيّمة في نظر هؤلاء الأفراد، فاقدة للقيمة في الواقع والحقيقة، لأن القيمة هي التي تحددها الفطرة السليمة والعقل الرشيد والعرف العقلائي، ومن لا يتوفر على الطبع السليم لا يمكنه تشخيص القيم.

النوع الثاني: البدعة في الشرع وهي عبارة عن تقديس العمل الذي لا علاقة له بالشرع، أو ممارسة الأعمال بعنوان (قصد القربة) في الوقت الذي تفتقد الدليل على مشروعيتها بهذا العنوان، خصوصاً في الأعمال العبادية، إذ العبادات مطلقاً عبارة عن أمر توقيفي وتحتاج ممارستها إلى دليل معتبر.

من جملة ذلك: الأدعية، والأوراد، والأذكار، والختومات التي لا دليل شرعي عليها، فهي بدعة محرمة.

هذا النوع من التدخل والتقديس بدون مبرر، أو عدّ العمل تقربياً بدون دليل، من جملة الأعمال الشيطانية: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ النساء: ١١٧ ـ ١١٩[1].

هؤلاء الأفراد المتبعون للشيطان يضلون كثيراً، من عباد الله الغافلين، فيجرّونهم للبدعة والانحراف وتغيير خلق الله، وخلاصة الكلام أن الذين يبتدعون في دين الله تعالى ويسلكون خلاف الاتجاه السنني الإلهي يغمسون أنفسهم في مستنقع الهوى والهوس ويسقطون في أحابيل الشيطان بمحض

(١) وبتك أي قطع، وقطع آذان الأنعام من الأطراف الأربعة للأذن هي وفق العرف الجاهلي، شعار للحرمة والتقديس. راجع سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

www.noormags.com

إرادتهم، وكل ما يفعلونه لا قيمة أخلاقية ولا دينية له، بل هو ضدّ القيم نفسها.

يقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير آية: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ١٨٩، «يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أيّ الأمور كان»(١).

ويقصد الإمام عليه السلام أنه يجب إنجاز الأمور جميعها على الوجه المتعارف، وكل انحراف عن الجادة القويمة هو خلاف التقوى، وهو ابتداع وضلال.

وكان النبي صلى الله عليه وآله يستاء من بعض البدع الجاهلية، كحرمان البنات من الميراث. وقد قال صلى الله عليه وآله: «يا معشر المسلمين، إن أفضل الهدى هدى محمد، وخير الحديث كتاب الله، وشرّ الأمور محدثاتها، ألا وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة ففي النار»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام بصدد التفريق بين السنّة والبدعة: «السنّة ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، والبدعة ما أحدث بعده».

ويقول الله تعالى حول الاعتقادات التي لا دليل عليها، وتُمنح الصفة الدينية: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ يونس: ٦٨ ـ ٦٩.

وبهذا الصدد يقول تعالى حول الاعتقادات الفارغة لليهود: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٨٠.

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٢٦٢، ح٧، نقلاً عن «محاسن البرقي».

(٢) بحار الأنوار ٢: ٢٦٣، ح١٢، نقلاً عن «أمالي الشيخ المفيد».

www.noormags.com